سوريا

Syrie, par Simon Jargy. Editions Rencontre

(L'Atlas des Voyages,) Paris, 1963

يتحدث سيمون جارجي في هذا الكتاب، الرائع الاخراج والصور، عما يعرفه ويحبه. وقد عرفه قراء مجلة «اوريان» الفصلية الصادرة في باريس بمقالاته النفاذة عن التقلبات السياسية في سوريا. لكنه هنا يكشف وجها اكثر لطافة: فهذا الكتاب ليس تاريخا للنزاع السياسي او عرضا للتقاليد، وانما هو رحلة رومنطيقية، شبيهة ببعض الرحلات في القرن الثامن عشر، عبر المدن القديمة والارياف ذات الطابع الثابت. وقد حاول، كما يقول، ان يتغلغل تحت اضطرابات الحياة المعاصرة ويركز اهتمامه على ما هو ثابت لا يتغير في تاريخ سوريا وروح شعبها.

وبما ان السيد جارجي فرنسي من اصل سوري فان كتابه، بمعنى ما، رحلة رجوع وحجيج للاصوات والراوئح والمشاهد الاليفة له في ايام الطفولة. كما ان القارىء يرى وراء هذا العمل عقلا اوربيا متجردا، شديد التأنق (حتى لتصدمه احيانا قسوة الحياة في الريف)، لكنه في الوقت ذاته عقل مليء بالحرارة الشرقية والادراك المرهف للتقاليد المحلية.

وقد بدت لي اهمية الكتاب اشدّ ما بدت في اعطائه معنى لجزئيات الحياة السورية وتفاصيلها والاجواء الخاصة التي قد تفوت السائح عندما يتنقل بين فندقه والمدينة كل يوم: كالنشاط الجماعي في احياء دمشق القديمة، والسهرات العائلية الطويلة، وحدائق المدينة البهيجة، وتشعبات الاسواق المسقوفة الظليلة، والشعور القوي بالروابط العائلية، ولهو الشباب واشعارهم، وطابع اللطف والمجاملة في الحياة السورية الخاصة.

وفي دمشق لا نرافق السيد جارجي في زيارته للاماكن الاثرية المعروفة، كالجامع الاموي الكبير وقصر العظم، وحسب، وانما نزور معه الجامعة ايضا، والمقاهي الادبية والسياسية المشهورة كالهافانا والبرازيل، بل اننا نزور ايضا معه كاتبتين طالعتين من كاتبات سوريا هما كوليت سهيل الخوري وغادة السمان. وتتخلل الوصف نوادر معبرة، وابيات شعرية، ومقتطفات من الرحالين القدامى، بالاضافة الى ما يزين النص من رسوم قديمة للآثار، والتجارة، والابطال، والاولياء، والعرائس.

ومن دمشق نرافق السيد جارجي في الباص والقطار والسيارة الى حمص فحماة — «سينا الشرق الادنى» — ثم حلب، والى قلعة الحصن رائعة الهندسة الصليبية التي يمكن لفنائها ان يستوعب اي بناء اوربي من مباني القرون الوسطى، والى تدمر عاصمة زنوبيا التي تقوم اطلالها وسط الصحراء، والى سهول الجزيرة الخصيبة، والى ربوع جبل الدروز الاشم. لكن عند كل لفتة في هذه الرحلة المفيدة تبعث الحياة في الحديث من خلايا حادث شخصي ما: كأن يحضر السيد جارجي حفلة عرس في تدمر، او يتحدث الى اسقف ارمني في حلب، او يغرق في مناقشة مع ملاك في قطار طوروس السريع، او يتناول وجبة بسيطة في قرية على

الحدود الشمالية الشرقية من المنطقة القليلة الامطار.

وينفتح القسم الثاني من الكتاب على اربعين صفحة مصورة رائعة تبين جمال المدن والريف وتباينها، واورقة المساجد الرطيبة، وواحة الغوطة الخصيبة، او منظرا يفوق الوصف يبرز جمال الضباب في واد مالت عنه الشمس. ويلي هذا خمسون صفحة من المعلومات الدقيقة عن سوريا، عن جغرافيتها وسكانها، عن تاريخها وسياستها، عن تنوع الاديان فيها، عن اقتصادها، عن الزراعة والتجارة، بل وعن مآكلها التقليدية، وعن علمها، ونشيدها الوطني، وعن انواع النكت التي قد يرويها الدمشقي عن القوم السذج في حمص.

سيثني على السيد جارجي لكتابه هذا كل من عرف سوريا واحبها مثله، وكل من يجد مثله ان شعبها مضياف، وان البقلاوة فيها اشهى مآكل الدنيا.

باتريك سيل

أرضنا الجديدة

بقلم خليل رامز سركيس. منشورات الندوة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٢

هذا الكتاب حديث رؤية، فيه لقضايا المصير البشري معاناة مفكر اصيل. وعناصر المعاناة اثنان: عنف لاهوتي عميق الجذور هو من الكيان البشري في الصميم، وضوء عقلي فيه من رصانة العلم اهم مقوماتها. يبدو ان عنصري المعاناة يلتقيان في لحمة غايتها الارض الجديدة في مستوى الصليب.

اول ما في الكتاب ان الانسان محور الكون، الكون الواحد، على ما فيه تعدد العوالم. الانسان اذاً واجب وجود لوعي الحقيقة الكونية والا اصبحت هذه الحقيقة دون قيمة وتعطلت الغاية من خلقها. وثانيا، ان الانسان وجود داخلي، اي وجود لاهوتي، «مخلوق على مثل الاله»، فيه من الاندفاع نحو المعرفة مثل ما في الكون من طاقات مختزنة.

ويلتقي الانسان والكون عبر تجربة المعرفة فيكون العلم، وهذا ليس سوى محاولة من الانسان للتسلط على الطبيعة بعد ادراك نواميسها. وعلى قدر ما يندفع الانسان في معاناة الكون يجب ان يبقى فيه، قويا، وبتكثيف كينوني، حقل اللاهوت، والا اختل توازن القوى فتغيب رؤية الارض الجديدة.

الكون اذاً، دون الانسان، ارض شبه موات. والانسان، دون معاناة الكون، غريب عن نفسه، بعيد عن موطن الله في الارض.

ولأن الانسان قمة الوجود فلا بد له من هجر الارض القديمة التي عشش فيها الحقد والكره والتفرقة، قصد التطلع الى ارض جديدة قوامها مشاركة الكون في وجوده الاصيل عن طريق العقل والقلب معا. وهي مشاركة في الديمومة لو كفت عن وعي ذاتها لاختل نظام الكون. واذ تحصل رؤية الارض الجديدة لا بد وان نشرك فيها الاخرين لما تتضمنه من حقيقة وجمال.

الارض الجديدة هي هذه الارض في مستوى المعرفة والمحبة. انها ارض الكلمة المتجسدة، الارض التي «لا يشارك فيها الا من يؤتى شعورا في مستوى العقل وعقلا في مستوى الحب» والتي «سوف تعمرها شعوب لم يولد معظمها بعد». وليس لهذه الارض الجديدة حدود لانه ليس للمعرفة عند الانسان حدود. «اليس خير ما يسمو بالمعرفة الى ما وراء الكون هو ان سموها نتيجة حتم للايمان بما وراء الطبيعة؟»